الفصل الثالث

الإسلام والحرية العلمية

١ - دعوة الإسلام إلى التفكير:

إن الإسلام يعتمد فى دعوته على تفكر العقل، لأن فى الكون نظاما عجيبًا يدل على وجود خالق له، فيكون الإيمان به عن اقتناع بوجود هذا النظام العجيب فى الكون، وعن اقتناع بوجوب إسناده إلى خالق عالم مريد قادر على خلقه، وإذا كان هذا هو الأصل فى الدعوة الإسلامية، فإنه لابد أن يعطى العقل حرية كاملة فى هذا الفكر، ليصل فيه إلى ما يصل فى حرية واختيار، ولا يصح أن نقيده بطريق معين من تفكيره، وبنتيجة معينة يصل إليها منه، لأنا إذا قيدناه بهذا كان مجبورًا عليه، ولم يكن له حرية واختيار فيه.

وقد رسم الإسلام لدعوته طريق التفكر فى الإيمان بها، من بدء الدعوة إلى منتهاها فى حياة النبى ﷺ، بل إلى ما شاء الله أن تقوم هذه الدعوة بعد وفاته، لأنه طريقها المرسوم فى كل الأجيال، إلى أن تنتهى هذه الحياة، وتأتى الحياة التى يحاسب فيها كل إنسان على عمله فينقطع عهد أخذ الناس إلى الإيمان بالتفكير، إذ يؤخذون إليه بالمشاهدة والعيان، ويرى كل إنسان جزاء ما قدمه من إيمان أو كفر، فيذعن عن مشاهدة وحس، ولا يكون هناك مجال

لنظر وتفكر، أو لكفر وجحد، لأن دلالة الحس والمشاهدة لا مجال فيها لشيء من ذلك.

وإنما رسم الإسلام لأمته هذه الدعوة وطريق التفكر فى الإيمان بها من مبدئها إلى منتهاها، لأن الله تعالى أراد لها البقاء، فلم يأخذها بمعجزة حسية يقطع بها عذرها، فلا يكون أمامها إلا المبادرة إلى الإيمان بها، ولا يكون لها حرية واختيار معها، بل تكون أمام أمرين لا خيار فى غيرهما لها: فإما إيمان فنجاة من آية الهلاك التى يرسلها الله معجزة حسية لرسولها، وإما كفر فهلاك لها بهذه المعجزة.

نعم لم يشأ الله لهذه الأمة أن يأخذها بمثل ما أخذ به من قبلها من الأمم، لأنه أراد أن ينهى عهد الرسالات برسول يكون خاتم الرسل، وبشريعة تكون خاتمة الشرائع، لأنها تكون صالحة لكل زمان ومكان، فلتبق لها أمتها إلى ما شاء الله أن تبقى، ولتأخذ فى شريعتها بطريق العقل فى كل أمورها الدنيوية والأخروية، لتنهض إلى ما قدر لها من الكمال فى دنياها وأخراها، وتفتح لغيرها من الأمم باب النهوض فى الدنيا، لأن الرسول الذى بعث لها لم تكن بعثته رحمة لها وحدها، وإنما بعث رحمة للناس كافة، وهداية لشعوب البشر جميعًا، فإذا قصرت أمته فى النهوض الذى أراده لكل الشعوب فى كل أنحاء الأرض، قامت أمة أخرى بأعباء هذا النهوض حتى لا يرجع الناس القهقرى، ولا يكون هناك نكسة بعد فتح باب النهوض لهم، وحاشا للإسلام أن يخص أمته

بما خصت به أمة اليهود نفسها، وإنما هو طريق النهوض مفتوح لكل الأمم، من آمن به ومن لم يؤمن؛ لأن وسائل النهوض تؤدى إلى غايتها، ولا تتقيد بشخص من يأخذ بها، سنة الله فى النشوء والارتقاء، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ونستخلص من هذا أن الطريق الأصلى للإيمان فى الإسلام هو طريق التفكر، ولا يعيبه أن من يسلكه قد يصل إلى الخطأ ولا يصل إلى الصواب، فهذا شأن كل طريق إلى مقصد من المقاصد لأنه قد يعترض فيها ما يحول دون الوصول إلى مقاصدها فلا يصح أن يحسب عليها ما يعترض فيها، وإنما يجب أن ينظر إلى أننا إذا لم نسلك هذه الطرق لم يمكننا الوصول إلى هذه المقاصد، وعلى هذا الأساس نظر الإسلام إلى طريق التفكر، فإن الإنسان إذا لم يتفكر لم يمكنه الوصول إلى الإيمان أصلا، وإذا فكر أمكنه الوصول إليه، فليكن هو الطريق المعول عليه فيه ولتحتمل بعض الحالات التى تعترضه فلا تجعله يوصل إليه، لأن عدم الوصول إليه فيها يرجع إليها، ولا يرجع إلى الطريق الذى اعترضت فيه.

وبعض الناس كالصوفية يسلك طرقا أخرى فى الوصول، كطريق العبادة والرياضيات الدينية التى يسلكونها، وهى طرق خاصة بهم اختطوها لأنفسهم، فلا يصح أن يعول عليها مثل طريق التفكر الممهد للناس كلهم، ولم تشرع العبادات فى الإسلام طريقا للوصول، وإنما هى آداب أخذ الله الناس بها، لما فيها من السعادة والهناء لهم فى دنياهم وأخراهم.

ولهذا سلك إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام طريق التفكر فى الآيات ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨ من سورة الأنعام: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

وفى هذا الطريق يبين لنا إبراهيم عليه السلام أن من يسلكه قد ينحرف هنا أو هناك، ولكن هذا الانحراف محتمل فيه لأنه عارض غير ذاتى، فلا يعترض فيه دائمًا، وإذا اعترض فكثير من الناس يتخطاه بتوفيق الله تعالى، ومن لا يتخطاه يكون العيب فى نفسه، لا فى الطريق الذى وصل به كثير غيره.

وقد جاءت الدعوة إلى طريق التفكر على أساليب متعددة فى القرآن الكريم، فيذكر الله تعالى مثلا فى سورة النحل ما خلق من الإنسان والأنعام والخيل والبغال والحمير وما فيها من آياته، ويذكر ما أنزل من السماء من ماء لنا منه شراب ومنه شجر، وينبت به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب من كل ثمرات، ثم يختمه بقوله فى الآية ١١ من هذه السورة: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ سورة النحل.

ثم ينتقل من هذا إلى ذكر ما سخر لنا من الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، ويختمه بقوله فى الآية ١٢ من هذه السورة: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ سورة النحل.

ثم ينتقل من هذا إلى ذكر ما ذرأ لنا فى الأرض مختلفًا ألوانه، ويختمه بقوله فى الآية ١٣ من هذه السورة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ سورة النحل.

وبعد أن تمضى آيات هذه السورة على ترتيبها يعود فيذكر فى الآية ٦٥ منها أنه أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ثم يختمه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سورة النحل أية ٦٥ أى سماع تفكر وتعقل لأن مجرد السماع من غير تعقل وتفكر لا فائدة فيه، ولا جدوى منه.

وأشباه هذا فى غير هذه السورة من القرآن الكريم كثير.

ومن هذا أن يذكر القرآن الكريم أسم القلب واللب بدل أسم العقل ويسند إليهما من معنى التفكر والتعقل ما يسنده إليه، كقوله تعالى فى الآية ٤٦ من سورة الحج: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾.

ومن إسناد التفكر والتعقل إلى الألباب قوله تعالى فى الآية - ١٩٠ - من سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

ولا شيء فى إسناد التفكر والتعقل إلى القلوب والألباب لأنه يراد منها العقول، إذ قلب كل شـيء باطنه، والإنسان يتركب من جزء ظاهر هو الجسـم، وجزء باطن هو النفس، وهى مركز العقل، على أن المعروف فيما بين النـاس أن محل العقل هو المضغة المعروفة باسم القلب، قد جرت على هذا أساليب اللغة، جرى على أساليبها القـرآن الكريم، فلا يؤثر فى هذا اختلاف العلماء فى محل العقل: هل هو القلب أو الدماغ أو غيرهما؟ لأن اللغة لها أسـلوبها، والعلم له طريق آخر غير الأسلوب، فلا يكون هناك منافاة بينهما.

ولا شك أن فيما ذكرنا من الآيات القرآنية تنويهًا بشأن من يتفكر ويتعقل، وتنويها بشـأن أصحاب القلوب والألباب، وهى العقول، لأن من يتفكر ويتعقل هو الذى يرجى منه أن يتنبه لما تنبهه وهذه الآيات له، من الإيمان بالله تعالى، ومن الإيمان بما أنزله على رسله عليهم السلام، فـإذا لـم يتوصل بهذا إلى علم دينى اسـتفاد منه علما دنيويـا، والعلم الدنيوى مطلوب فـى الدين مثل العلم الدينى، لأن الدين يطلب للناس سعادة الدنيا والآخرة، وما لا يدرك كله لا يترك كله، والعلم الدنيوى لا يقل شأنا عن العلم الدينى.

٢ - دعوة الإسلام إلى العلم:

ومن الطبيعى أن يدعو الإسلام إلى العلم بعد دعوته إلى التفكر، لأن التفكر نتيجة العلم والمعرفة، الغرض الذى يدعو الإسـلام إلى

طلب العلم، هو الغرض الذى يدعو إلى طلب التفكر، والغاية التى تقصد من طلب العلم، هى الغاية التى تقصد من طلب التفكر، لأنه لا فرق فى هذا بينهما. فالعلم إنما يطلب فى الإسلام لأن من شأنه أن يوصل إلى الإيمان بالله تعالى، العلماء هم الذين يمكنهم الوصول إلى هذا لا الجهلاء.

ولهذا يكون العلم - كالتفكير - مطلوبا أولا لذاته. فإنه إنما يصح الإيمان بطريقه لأنه هو الذى يوصل إليه عن حرية واختيار. وهما شرط فى صحة الإيمان. ولا حرية ولا اختيار إلا إذا اتخذ العلم طريقا مطلقًا. وسار الإنسان فيه بنفسه يهتدى بهديه وحده. فإذا وصل فيه إلى الإيمان بالله تعالى فبتوفيقه له. ولا يصح إكراهه على شىء بلا تدبر أو تفكر، وإلا كنا متناقضين فى جعله مختارًا أولا ومكروها أخيرًا! الذى يليق بدل هذا التناقض إكراهه من أول الأمر.

وكما لا يقيد الإسلام العلم الذى يطلبه بطريق معين ولا بنتيجة معينة، بل يطلبه مطلقًا وصل إلى ما يريده أو لم يوصل، لا يقصره على أن يكون من العلم الدينى، بل يطلب العلم مطلقًا دينيًا أو دنيويًا، لأن كلا منهما متمم للآخر عنده، وإن كان بعض أصحاب العلوم الدنيوية لا يرون ذلك، ولا يعترفون إلا بالعلم الدنيوى، فالإسلام لا يقيدهم بما يراه، له فى هذا رأيه ولهم رأيهم.

على أن الإسلام يقصر سلطانه على العلوم الدينية، فلها عنده أصولها التى تستمد منها، وإن كان للعقل سلطانه فيها أيضا، لأن

مسائلها تستمد من نصوصها بالاجتهاد، والاجتهاد وظيفة، فهو الذى يستنبط مسائل هذه العلوم من أصولها، وهو مناط التكليف فيها، حتى ورد فى هذا من الأثر:

(لا دين لمن لا عقل له).

أما العلوم الدنيوية فلا شأن لسلطان الإسلام فيها، وإنما السلطان فيها للعقل وحده، حتى لا يتحكك[1] بها رجال الدين ولا يحدث واحد منهم نفسه أن يقف فى سبيلها باسم الإسلام، فيعوقها عن التقدم والنهوض، ويفرض نفسه على رجالها بغير حق، مع أنه لا شأن له بهم، وإنما له علومه ولهم علومهم.

ولأجل هذا ضرب النبى ﷺ مثلا كريمًا فى علم الزراعة من العلوم الدنيوية، فمعلوم أنه نشأ بمكة حيث لا زرع فيها يكون عنده بعض العلم به، وإنما كان أهلها يشتغلون بالتجارة بين الشام واليمن، فحذقوا التجارة ولم يحذقوا الزراعة.

فلما هاجر إلى المدينة انتقل من قوم حرفتهم التجارة إلى قوم حرفتهم الزراعة، لأن أهل المدينة كانوا أهل نخيل وغيره مما كانوا يزرعونه، ولكن النخيل كان أكثر زراعتهم، فمر على قوم من أهل المدينة يؤبرون نخيلهم، أى يضعون طلع ذكور النخل فى طلع الإناث، فقال لهم: «لو تركتموه لصلح» فتركوه فلم يصلح كما كان يصلح بالتأبير، فذهبوا إليه يخبرونه بما حصل من فساد ثمر

(١) تحكك بالشىء: تحرش وتعرض له.

نخيلهم فأمرهم أن يعودوا إلى تأبيره كما كانوا يفعلون، وقال لهم: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» ليفصلوا بهذا بين علم الزراعة وغيره من العلوم الدنيوية وبين علم الدين وأحكامه ويكون لهم شأنهم فى العلم بزراعتهم لا يرجعون إليه فيها، وإنما يرجعون إليه فى أمور دينهم.

وقد يقول قائل: إن النبى ﷺ تعرض فى ذلك لما لا يعنيه من أمور زراعتهم، لم يكن هناك داع إلى تعرضه له، ولا إلى ارتكاب هذا الخطأ فيه.

والجواب أنها كانت تجربة من النبى ﷺ أراد بها أن يوفر على أهل المدينة عناء الطلوع على النخل والنزول، وأن يقوم الريح بين النخيل بتوصيل ما فى طلع ذكور النخيل إلىطلع الإناث، وللتجربة العلمية فائدتها فى النهوض بالعلوم وفى السير بها فى طريق التقدم، وهى اجتهاد من شأنه أن يصيب، ومن شأنه أن يخطئ، فيغتفر فيها الخطأ بجانب الصواب، ليمضى الاعتماد فى النهوض بالعلوم، ولا تنقطع عنها لبعض من الخطأ يقع فيها.

وهذا مثل آخر ضربه النبى ﷺ فى علم الطب، وكان هناك طبيب من أهل الطائف يعاصره، يقال له الحارث بن كلدة، تعلم الطب والفلسفة فى مدرسة جنديسابور ببلاد فارس، ثم عاد إلى الطائف فاشتغل فيها بالطب، فكان النبى ﷺ يأمر أصحابه إذا مرضوا بالذهاب إليه، ولعله كان الطبيب الوحيد الذى درس من العرب

الطب دراسة علمية، وكانت بلاد العرب تعج بدجاجلة الطب الذين لا يعتمدون فيه على الوسائل العلمية فأمرُه ﷺ لمرضى أصحابه بالذهاب إلى هذا الطبيب العالم دون دجاجلة الطب اعتراف منه بقيمة هذا العلم من علوم الدنيا، بأن هذه العلوم لها رجالها الذين يرجع إليهم فيها، ولا يرجع إليه ولا إلى غيره ممن لا علم لهم بها، وممن لم يدرسوها دراسة علمية منظمة، وضعًا لهذه العلوم في نصابها الصحيح، حتى لا يتطفل عليها غير أهلها من رجال الدين أو غيرهم.

وقد روى عن أسامة بن شريك ﷺ أنه قال:

«أتيت النبى ﷺ وأصحابه كأنما على رءوسهم الطير، فسلمت ثم قعدت، فجاء الأعراب من ههنا وههنا، فقالوا: يار سول الله أنتداوى؟ قال: تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد: الهرم» رواه الجماعة، ورواية البخارى فى كتاب الطب.

فقرن الفعل بالقول، حتى يكون الأمر فى علم الطب قولا صريحا، أنه علم بالداء، وعلم بالدواء وأن الدواء له أثره فى الشفاء، فلا يصح لرجل الدين أن يتمحك فيه بأن الأمر قضاء وقدر، ليقعد المرضى عن البحث عن الدواء، ويتكلوا على القضاء والقدر، وإنما هو علم الطب له رجاله الذين يرجع إليهم فيه، ولا يصح الرجوع فيه إلى غيرهم، ليصرفونا عن الرجوع إليهم باسم الدين أو غيره، والدين برىء من تصرفهم.

ومن دعوة الإسلام إلى العلم ما نوَّه به القرآن من شأن العلماء فهو تارة يحكم بنفى التسوية بينهم وبين غيرهم، فيقول فى الآية ٩ من سورة الزمر: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وتارة يقصر خشيته عليهم، فيقول فى الآية ٢٨ من سورة فاطر: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾.

ومن دعوة الإسلام إلى العلم ما ذكر القرآن فيه أنه لا يقف عند حد ليطلب الناس الزيادة فيه على مر الأزمنة والأجيال، ولا يكتفوا بما وصلوا إليه فيها ولو عظم شأنه، وظنوا أنه لا شىء وراء ما وصلوا إليه.

وفى هذا يقول الله تعالى فى الآية ١١٤ من سورة طه: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾. ويقول تعالى فى الآية ٨٥ من سورة الإسراء: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

ويقول تعالى فى الآية ٧٦ من سورة يوسف: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

إلى غير هذا مما يدعو إلى طلب العلم على إطلاقه، من علم دينى وعلم دنيوى، ومما لا يحدد الغاية منه، فلا يقتصر طلبه على أن يكون لأجل الوصول إلى الإيمان بالله تعالى فقط، بل يطلب لكل الغايات، من غايات دنيوية، وغايات أخروية، لأن فيه سعادة الدنيا والآخرة، كل من السعادتين مطلوب فى الدين، فلا يتقيد طلب العلم فيه بأن يكون لأجل إحداهما دون الأخرى، ومن طلبه

لأجل سعادة الدنيا فقد أتى ببعض الواجب عليه، ولا يصح أن ينكر له فضله فيه، ولا أن يكون شأنه فى الدين مثل شأن القاعد عن طلب العلم.

٣ - استلزام الدعوة إلى التفكر والعلم للحرية العلمية:

ولا يعقل كما سبق أن يدعو الإسلام إلى التفكر والعلم ثم لا يعطى مـن يدعوه إلى الحرية العلمية، حتى لا يكون هناك سـلطان عليه لغير العقل والعلم، ولا يخشـى فى هذا بـأس حاكم أو رجل دين، وإنما هو مجتهد فى العلم، فليطلق له السراح فيه ليسير إلى الأمام، ولا يرجع إلى الوراء، بل ينهض بأمته فى دنياها ودينها، وليرسم لنفسـه طريق البحث، ويرتاد بنفسـه معالـم الطريق، ولا يجعله كالأعمـى يحتاج فـى طريقه إلى قائـد، لأن من يتـوكأ على غيره لا يأتى الدنيا بجديد، وإنما هو مقلد عاجز عن التجديد.

ولا يصح أن يخشى الإسلام التفكر وهو يدعو إليه، ولا أن يخشى العلـم وهو يدعو إليـه أيضا، وليس فيه شـىء يناقض العقل حتى يخشـى التفكر، ولا شـىء يناقض العلم حتى يخشى العلم، وإنما هـو دين العلـم والعقل، فليكن للعقل فيه سـلطانه المطلق، وليكن للعلم فيه سـلطانه المطلـق أيضا، وليعلن خضوعه لسـلطانهما من غير خوف منهما، ليتفق الثلاثة على إسعاد المجتمع الإنسانى فى دنيـاه وأخراه، لا يناوئ واحد منها الآخـر فى ذلك، لأن هذا مما

لا يصح المناوأة فيه، ومتى اتفقت غاية الثلاثة فيه أمكن الجمع بينها فى كل ما يشتبه فيه الأمر بينها، أو يكون فى ظاهره خلاف يوهم تنافيها، وما أسهل الجمع فى ذلك عند خلوص النية، وعند المرونة الدينية والعلمية.

٤ - سلطان دليل العقل على دليل النقل فى الإسلام:

لقد فتح الإسلام للعلماء باب الاجتهاد فى الدين، فأعطى للعقل سلطانه على دليل النقل، يستنبط منه ما شاء من أحكام الدنيا والآخرة، ويدخل فيه ما يلزم من التأويل، يدخل فيه ما يلزم من التخصيص والتعميم ويدخل فيه ما يلزم من التقييد والإطلاق، ويدخل فيه كل ما يلزم غير ذلك من ضروب الاجتهاد، حتى يهيئه للحكم الذى يؤدى إلى ما اتفقا فيه من الغاية وهو سعادة الناس فى دنياهم وأخراهم، وحتى لا يكون على الناس حرج فى الدين، لأن الدين يسر لا عسر، وتسهيل لا إعنات، وإسعاد لا إشقاء.

وكان هناك من يأبى إعطاء العقل هذه السلطة على دليل النقل، ولو كان فى ظاهر دليل النقل ما يؤدى إلى المستحيل الذى يمنعه العقل، بل كان منهم من يقول بهذا المستحيل جمودًا على ظاهر هذا النقل.

ففى القرآن مثلا نصوص يفيد ظاهرها التجسيم فى ذات الله تعالى: مثل قوله فى الآية ٥ من سورة طه:

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ ﴾ ومثل قوله فى الآية ١٠ من سورة الفتح:

﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾. ومثل قوله فى الآية ١٦ من سورة ق: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾.

فأفحش الناس فى الخطأ فتوهم فى ذات الله تعالى أنها جسم يجلس على عرشه مثل جلوسنا، وله يد مثل أيدينا، وقربه منا قرب مكانى كقرب الجسم من جسم آخر قريب منه.

وهناك مَنْ تورع عن القول بمثل ذلك التجسيم، ولكنه أخذ بظواهر هذه النصوص، وأنكر أن تؤخذ بشىء من التأويل. فكان يقول فى الآية الأولى: الاستواء معلوم، والكيف مجهول لا يعلمه إلا الله تعالى، وهو على نحو لا يؤدى إلى التجسيم، ويقول فى الآية الثانية: له يد لا كالأيدى. وفى الآية الثالثة مثل ما قال فى الآية الأولى.

وهناك من يخالفون الفريقين فى الأخذ بظواهر النصوص، يذهبون إلى تأويلها وصرفها عن ظواهرها، جمعًا بين دليل النقل ودليل العقل، فيذهبون إلى أن معنى (استوى) فى الآية الأولى: استولى. ويذهبون إلى أن اليد فى الآية الثانية بمعنى القدرة، ويذهبون إلى أن قربه تعالى منا فى الآية الثالثة علمى لا مكانى.

وقام النزاع بين هذه الآراء إلى أن انتصر أخيرًا مذهب الإمام أبى الحسن الأشعرى، إذ أراد أن يجمع الفريقين على مذهب سواء،

فلا يمتنع من التأويل أصلا مثل الفريق الأول، ولا يسرف فى التأويل مثل الفريق الثانى، بل يذهب إلى التأويل إذا لم يكن منه بد، وهذا عند قيام الدليل العقلى القاطع على إرادة ظاهر النص، ولا يذهب إلى التاويل إذا لم يكن هناك دليل عقلى قاطع، بل كان هناك مجرد دليل عقلى ظنى، فيكون الأولى إبقاء دليل النص على ظاهره، لأن الظن العقلى لا يغنى من العلم شيئا.

وقد تقبل جمهور المتأخرين من المسلمين مذهب الأشعرى فى ذلك. حتى صار الآن هو الذى يمثل مذهب جمهور أهل السنة، ولا يوجد إلا قليل منهم يجمد على مذهب القدامى منهم.

ولا شك إن إخضاع دليل النقل لدليل العقل فيه من الحرية العلمية كل ما تسعه هذه الكلمة من معنى، وما يعطى العلماء سلطة واسعة أمام الجامدين من رجال الدين، فلا يكون لأولئك الجامدين سلطان عليهم أصلا، ولا يكون لهم أن يسلكوا سبيل التعسف معهم، وإنما هو قرع الدليل بالدليل، وما أضعف دليل الجمود أمام دليل التجديد.

نعم إنها حرية علمية واسعة فى هذا الدين الحنيف، حتى إن بعض أنصار التجديد فى عصرنا يستكثرها على العلم، ويذهب إلى أن مسائل العلم تتغير، ومسائل الدين لا تقبل مثل هذا التغيير، ولو أخضعناها للعلم لتغيرت معه بتغير الزمن، وفقدت بهذا قداستها عند الناس، وهذه القداسة هى رأس مالها عندهم.

ولكنـــه لا محل لهذا الخوف على مســائل الدين، لأنا لا نحمل منها على مسائل العلم إلا ما وصل الأمر فيها إلى حد القطع واليقين، بخلاف ما يكون مبنيًا منها على الظن، ولا شك أن المسائل العلمية اليقينيـــة لا تتغير بتغير الزمن لأنها مـــن البداهة بحيث لا تقبل هذا التغيير.

* * *